الباب الأول

في انتقاد المنطق

المنطق ثلاثة أجزاء :

١- حمل الشيء على الشيء، وهو باب قاطيغوريا.

٢- الحدود.

٣- القياس، وهو المقصود.

حُجَجُ القُرآن

الحكمة البازغة والحجة البالغة

تأليف

الإمام عبد الحميد الفراهي

صاحب كتاب

نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان

الدائرة الحميدية

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للدائرة الحميدية

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

ثمن النسخة ... روبية

تطلب جميع كتبنا من:

الدائرة الحميدية مدرسة الإصلاح، سرائ مير، اعظم كره، يوپي، الهند

Published by: Dairah Hameedia Madrasatul Islah, Sarai Meer
Azamgarh, U.P. (India)

Distributed by: Al-Balagh Publications, N-1, Abul Fazl Enclave,
Jamia Nagar, New Delhi-110025

المقالة الأولى

في انتقاد المنطق والفلسفة والكلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، رسولنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد فإن هذا الكتاب الذي يصدر اليوم لأول مرة من أجلّ مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله، وهو جزء من مشروعه القرآني العظيم المشتمل على اثني عشر كتابا: خمسة منها في ألفاظه، وأساليبه، وأصول تأويله، ودلائل نظامه، وتاريخ جمعه وتدوينه. وسبعة منها في علومه، وهي: حكمة القرآن، وحجج القرآن، والقائد إلى عيون العقائد، والرائع في أصول الشرائع، وإحكام الأصول بأحكام الرسول، وأسباب النزول، والرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ. وكان المؤلف رحمه الله يعد هذه الكتب كلها أجزاء من مقدمة تفسيره «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» .

أما هذا الكتاب فقد وضعه المؤلف رحمه الله للكشف عن طريق القرآن الكريم في الاستدلال والمحاجّة، وإثبات فضله وعلوه على مناهج

الفصل الثاني

في بيان موضع هذا الكتاب من الجهة العمومية[1]

---

[1] بياض في الأصل.

الفلاسفة والمتكلمين وبيان ما فيها من ضعف وقلقة وفساد من الناحية العقلية البحتة؛ ثم شرح الحجج والبراهين التي احتج بها القرآن على التوحيد والرسالة والمعاد، وهي جماع العقيدة الإسلامية. فأراد رحمه الله أن يكون كتابه جامعا بين التنظير والتطبيق.

وقد بين المؤلف رحمه الله في خطبة الكتاب في إحدى مسوداته موضوعه وأهميته فقال:

«فهذا كتاب من مقدمة «نظام القرآن» أفردته لذكر أعظم ركن من كتاب الله، وأول أمر من نعت هذا النبي صلى الله عليه وسلم وآخره، وهي أربعة: تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة. فقدم تلاوة الآيات وختمها بالحكمة، فهاتان كالبذر والثمر... وكان أفخم جانب الآيات وأقدمه هو: الخطاب إلى الإنسان من جهة فطرته، ودعوته إلى الحق من جهة بصيرته... ولذلك أكثر القرآن في أوائل الدعوة من ذكر الآيات الدالة على ما يؤمن به من التوحيد والمعاد والرسالة... فالعلم الذي يبين الطريق إلى فهم هذه الدلائل على أصول الدين الثلاثة يكون أعلى منزلة وأعظم عناية من جهة موضوعه، فإن الإيمان هو الأصل الذي تفرعت عنه الشرائع الخاصة» .

أما الأسباب التي دعت الإمام الفراهي رحمه الله إلى تأسيس هذا العلم، فقد أفاض القول فيها، وذكر سبعة أسباب، ولكن أهمها عنده سببان:

أحدهما يتعلق بالدين معظم همهم المعقول من المنطق. يقول الفراهي: «فإنهم قد ابتلوا بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى مفضية إلى الحيرة وصريح العمى... ولذلك حذر السلف عن الاشتغال به، ولكن أنى

الاقتضاب في القرآن هو أكبر دليل على أنه كلام الله تعالى، فإنه لو كان كلام الإنسان لكان فيه نظم وترتيب، والفطرة لا يرى فيها ترتيب. ألا ترى نجوم السماء وأشجار البرية وأنهار الأرض وسواحل البحر كل ذلك خلوا عن ترتيب ونظام، وهؤلاء أجهل الناس بمفهوم النظام الحقيقي. فهذا الظن الباطل صار سدا شديدا دون التدبر في نظم القرآن عموما فخفي عليهم طرف عظيم من مطالبه المهمة وبلاغته العجيبة فضلا عن دلائله اللطيفة ولذلك تراهم كثيراً قد أخطأوا موارد الاستدلال، فأولوه إلى غير الدعوى فلم يتبين لهم ما فيه من القوة والتقريب بل ربما خفي عليهم نفس الاستدلال كما بيناه في مواضعه.

فرأينا الحاجة شديدة إلى الكشف عن نظمها ليتضح التقريب بين الدليل والدعوى وصحة الاستدلال وقوته، فهذه جملة الكلام في بيان الحاجة والداعية لموضوع هذا الكتاب.

الناس إلا النظر فيه، والولوع به، والإخلاد إليه! ثم بعد التجربة عرفوا مضارها. فمنهم من أبطل بعض أباطيلها، وأبقى بعضها محسنا به ظنه كأبي حامد رحمه الله، فإنه بيّن تهافت ما في إلهيات اليونانيين، ولكنه هو الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربّى أولادها. وكذلك اتخذ أخلاقياتهم، وبنى عليها كتابه ميزان العمل، فلم يخرج عن اتباع الفلاسفة مع علوه في ردهم. وأما ابن مسكويه والطوسي وأمثالهما فهم مجاهرون بتقليد اليونانيين في الأخلاقيات. ومنهم من انتبه لأكثر من ذلك كابن تيمية رحمه الله، فرد على المنطقيين ردا طويلا، ودل على زيغ نهج المتكلمين، ولكنه قد اقتنع بالهدم و لم يبنِ قصراً يأوون إليه، والناس قلما يتركون ما اعتادوا به من دون بدل يأخذونه عوضا عما ينبذونه.

وكنت أحد في القرآن أصولا للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها، فتأكد عندي الحاجة إلى جعلها موضوع علم مستقل. وعرضتُ جملة منها على بعض الأذكياء من العلماء، فألح عليّ بإتمامه غاية الإلحاح، فرجوت أن يتقبله أهل النظر، ويزول به بإذن الله ما منع الناس عن فهم ما جاء به القرآن من بوالغ الحجج، لما اشتغلوا به من العلوم السافلة المبعدة من استقامة العقل وسداد الفكر، وذلك من الجهة الكلية الأصولية» .

وأما السبب الآخر فهو: «أنه قد تعلق بهم من أباطيل المنطق ظن خاص منعهم عن معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ، وذلك ظنهم بأن

القضايا الأخلاقية مظنونات، ولا يقوم بها برهان. ولم يتفطنوا أنه بهدم الدين كله، مع أنه بهدم جانبا عظيما من حكمتهم وهو الحكمة العملية. فلو لم يكن في المنطق من الضلالة إلا هذا القول الباطل والسم القاتل لكان أولى بأن يقدروا أمره ويتقوا شره... ولما أدخل أبو حامد رحمه الله المنطق في الإسلام تلقاه الناس بالقبول وخروا عليه صما وعميانا، وتمكن في قلوبهم أن هذا هو طريق معرفة الحق، وبذلك خيل إليهم أن دلائل القرآن إنما هي محض الخطابيات» .

وقد أوتي الإمام الفراهي رحمه الله بسطة في المعقولات، ثم خصه الله تعالى بعلم كتابه العزيز، فكان أقدر الناس على معالجة هذا الموضوع. أما المعقولات فقد درس الفراهي كتب الفلسفة والمنطق والكلام أيام طلبه، إذ كانت جزءاً لازماً من المنهج الدراسي السائد في عهده في الهند، ثم لما التحق بكلية عليكره درس الفلسفة الحديثة فيها على المستشرق الشهير توماس أرنولد، وبرّز فيها.فكان رحمه الله أول عالم في عهده جمع بين علوم الشرق والغرب، وأخذها من مصادرها من غير واسطة.

يقول الأستاذ عبد الماجد الدريابادي أحد المختصين في الفلسفة الحديثة: «إن الفراهي قد درس الفلسفة دراسة واسعة وعميقة جداً، وكان يتابع أحدث ما يصدر في الغرب من كتب الفلسفة والمنطق، ولم يكن يكتفي بالإطلاع عليها بل يقرؤها قراءة بحث ونقد ومقارنة».

أما كتب المتكلمين فقد بلغ من مدارستها في مقتبل حياته أن تقدم إليه مؤسس كلية عليكره السيد أحمد خان — والفراهي طالب في الكلية —

وكانوا يظنون أنه لا يخاطب به إلا الأغبياء. فأنزل الله تعالى القرآن على أسلوب كلامهم كما أنزل على أفصح لسانهم. والقول البليغ الجامع الموجز لا يطلع على تمام معانيه من غير تدبر، فجهلهم بحال العرب وأسلوب كلامهم صرفهم عن التدبر في القرآن.

والثاني : إنهم لم يعلموا أن من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة، فلذلك خاصة أكثر من لطائف الأدلة ليتعلموا التفكر والاستنباط. ولذلك كثيراً ما يكتفي بالتنبيه على الدلائل والحث على استنباطها، بل قد ينبه على الأصول الفطرية التي يبنى عليها الاستدلال كما هو مبسوط في موضعه. فلما كان القرآن على هذه الصفة من الغور واللطافة خفي كثير من دلائله على من يتوهمه خطابا عاميا. ولذلك احتجنا إلى بسط الأدلة بذكر ما انطوت عليه من المقدمات المقدرة التي إنما يطلع عليها الأذكياء الممارسون بالخطابات البليغة المحكمة.

والسابع : إنه غلب على أكثر الناس الظن بأن القرآن كثير الاقتضاب والانتقال من معنى إلى معنى من غير مناسبة بينهما. وقد وقع في هذه المغلطة بعض الأذكياء مثل ابن حزم الظاهري وصاحب[1] "الفوز الكبير". دع عنك ما تفوه به بعض الظانين بأنفسهم أنهم يصلحون فقالوا إن

[1] هو الشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (١١١٤-١١٧٦هـ/١٧٠٢-١٧٦٢م) صاحب الفوز الكبير، وحجة الله البالغة. (انظر ترجمته في نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، لعبد الحي الحسني. دار عرفات، الهند، ١٤٨٢هـ : ٦/٣٩٨-٤١٥.) وقد ذكر الإمام ولي الله الدهلوي رأيه في هذا الأمر في كتابه "الفوز الكبير في أصول التفسير" تحت عنوان "الفصل الرابع في ترتيب مباحث القرآن الكريم"، (طبعة دار السنة، لكناؤ، الهند، الطبعة الرابعة: ٩٩-١٠٠)

جداً.

والغفلة هي عدم النظر فهي سبب عدمي ولكنها إنما نشأت من الانهماك في الظاهر الحاضر، وهذا عطل قوى العقل وأغلق غرف الإدراك لما هو المشهود في الأنفس والآفاق من مظاهر الجلال والجمال والحكمة والرحمة. فصاروا لا يرون إلا الظاهر المحسوس كالبهائم كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف/١٧٩). وقال تعالى في هؤلاء: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم/٧). وقال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النجم/٢٩-٣٠). وهذا كثير جداً.

والعلوم التي اشتغل الناس بها من الطبيعيات والرياضيات والإلهيات وغيرها كلها متوجهة إلى أغراض سافلة سواء كانت مادية أو مجردة عن المادة. فهي من المشاغل الدنياوية الصارفة عن النظر إلى الحق وآياته وبسط ذلك في موضع آخر.

والسادس: إنه غلب على أكثر الناس الظن بأن القرآن إنما خوطب به الأميون البسطاء فلا يكون موضعاً للتدبر وإمعان النظر. وقد أخطأوا في ذلك من وجهين:

الأول: إنهم لم يعلموا أن العرب كانوا في أعلى درجة الذكاء لا سيما في بلاغة الكلام وإيجاز الخطاب بل قد بني لسانهم على ذلك. ولذلك كانوا مولعين بجوامع الكلم والخطاب المحكم، وكانت أسماعهم تمج الهذر والبسيط

بتصحيح نسخة من بعض كتب الغزالي، وكان السيد معنياً بتحريره، ولكن النسخة كانت سقيمة قد عاثت فيها الأرضة، فذهبت ألفاظ كثيرة منها، وقد أعياه تصحيحها. فتأمل الفراهي في المواضع التي أعلم عليها السيد، واقترح ألفاظاً مناسبة لها. ثم ظفر السيد بنسخة أخرى من الكتاب سليمة، فلما قابل لها نسخته التي صححها الفراهي تبين له أن تصحيحاته المقترحة إما أنها كانت مطابقة لما في النسخة السليمة أو مقاربة لها، فبهر السيد ذكاء هذا الطالب ونفاذ بصره، فسأله: ما الذي هداك إلى هذه التصحيحات؟ قال الفراهي: سياق الكلام وأسلوب الغزالي، وأرجو أن أكون مصيباً في معظم المواضع.

كان هذا شأنه، وهو طالب، ولم يزل يترقى في مدارج العلم حتى أوفى على الغاية.

لقد توغل الفراهي في دراسة أفكار فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين وفلاسفة الغرب المحدثين وكتب المتكلمين، ولكنه كان رجلاً جهبذاً نقّادة، يميز بين الغث والسمين، ولا يخفى عليه الحق من الباطل. ثم بيده السراج المنير يضيء له معالم الطريق، ويبدد الظلمات، ألا وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكان أحب كتاب إليه وألذه، ولم يزل يتدبره ثلاثين سنة أو أكثر حتى فتح الله عليه من كنوزه وأسراره ما شاء، فكان نسيج وحده في فهم كتاب الله عز وجل. ولم يقبل عليه لإثبات فكرة سابقة أو ردها، ولا ينظر فيه من منظار معين، بل كان القرآن عنده هو المورد والمصدر، وهو المحك والميزان لجميع العلوم والمذاهب والأفكار.

وقد أدى تدبره للقرآن الكريم حسب المنهج القويم الذي اهتدى إليه، ونعمّقه في دراسة الفلسفة إلى معرفة دقيقة لانحرافات الفلسفة وأسبابها فلم يعمد إلى نقدها وبيان زيفها فقط بل أراد تأسيس علوم عقلية جديدة تقوم على قواعد صحيحة راسخة يهدي إليها كتاب الله عز وجل. فشرع في تسويد عدة كتب نحو:

- العقل وما فوق العقل.
- النظر الفكري حسب الطريق الفطري.
- المنطق الجديد.
- القسطاس (وهي رسالة في علم جديد وهو منطق العمل وميزان الإرادات وأساس الحكمة العملية).
- الإشراق في الحكمة الأولى من حقائق الأمور ومكارم الأخلاق.

ثم قيد أفكاراً وخواطر تسنح له في علوم كثيرة منها العلوم العقلية في بعض مجموعاته مثل قيد الأوابد، ولوامع الأفكار، والطارق والبارق.

وكأنه رحمه الله لما عزم على تأليف كتاب صحح القرآن على الخطة التي استقر عليها أخيراً صرف النظر عن الكتب المذكورة لدخول مباحثها ضمن هذا المشروع العظيم.

وقد تبين من دراسة نسخة الكتاب التي وصلت إلينا أن الإمام الفراهي رحمه الله سوده أكثر من مرة. وكان في البداية يريد أن يرتبه بعد ديباجة في موضوع الكتاب وغايته على قسمين: قسم عمومي يتناول المباحث الأصولية

(الألفاظ لا تكون خارجة عن مقادير العقول إنما هي المعاني. وإذ كان الوحي مشتملا على هذه المعاني فكيف يزعم أنها موكولة إلى غير الوحي. هذا، ثم ذكر بعض ما يصعب تصوره على الجمهور حتى قال) فطرق البراهين الحقيقية منشؤها من عند الفلاسفة الذين مقدمهم هذان الحكيمان أعني أفلاطون وأرسطوطاليس. وأما طريق البراهين المقنعة المستقيمة المجدية النفع فمنشؤها من عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالإبداع الوحي والإلهامات"[1]

فهذا قول من قد آمن بالوحي، فزعم أنه إنما جاء بالإقناعيات وأن البراهين الحقيقية إنما هي مع الفلاسفة، ثم تبعه المتأخرون. ولم يكن ذلك إلا لعدم تدبرهم كتاب الله الحكيم. وستطلع على قصارى سعيهم في أمر الإبداع ومسائل التوحيد، وماهم عليه من الريب والأباطيل. فإنما المقصود ههنا ليس إلا ذكر أنهم لم يعرفوا قدر ما أنزل الله من البينة والبرهان، فوجب كشف هذه الغمة عن أبصارهم.

والخلاصة : أنه لما كانت الغفلة عما هو فوق هذه الحياة الدنيا غالبة على أكثر العقول لشدة انهماكهم في مشاغل هذه المحسوسة الحاضرة وعلومها كما قال تعالى :﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (سورة يوسف/١٠٥).فمع أن دلائل القرآن قريب من القطر بن منبهة على الفكر وأصول النظر تراهم لا يتفكرون، ولذلك قد أكثر القرآن من الحث على التدبر والتفكر مثلاً قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة محمد/٢٤).وهذا كثير

[1] المرجع السابق: ٣١.

الرأي حتى غلب على المتكلمين ممن آمنوا بالوحي والمرسلين، فصار حل همهم إثبات هذه المسائل على طريق الفلاسفة ولم يعلموا أن الفلاسفة إنما أخذوها من تعليم الأنبياء حسب اعترافهم مع تخليط من عند أنفسهم. قال الفارابي في "كتاب الجمع بين رأي الحكيمين" :

"ليس لأحد من أهل المذاهب والنحل والشرائع وسائر الطرائق من العلم بحدوث العالم وإثبات الصانع له وتلخيص أمر الإبداع ما لأرسطوطاليس وقبله لأفلاطون ولمن يسلك سبيلهما. وذلك أن كل ما يوجد من أقاويل العلماء من سائر المذاهب والنحل ليس يدل على التفصيل إلا على قدم الطبيعة وبقائها."[1]

وبعد ذلك اعتذر وانتصر للشرائع فقال ما خلاصته: أن الله تعالى جعل كل شئ في محله وفوض كل أمر إلى أهله. ولما كان خطاب الشرائع عامة والجمهور لا يقدرون على تصور البرهانيات جعل الشرعيات على قدر أفهامهم حتى قال :

"البرهانيات موكولة إلى أصحاب الأذهان الصافية والعقول المستقيمة، والسياسيات موكولة إلى ذوي الآراء السديدة، والشرعيات موكولة إلى ذوي الإلهامات الروحانية. وأعم هذه كلها الشرعيات (ولعله بعد هذا القول انتبه على ما في الوحي من الحكم الغامضة فقال مناقضا لقوله) وألفاظها خارجة عن مقادير عقول المخاطبين، ولذلك لا يؤاخذون بما لا يطيقون تصوره"[2]

---

[1] كتاب الجمع بين رأي الحكيمين- أفلاطون وأرسطو طاليس (رسالة شاملة في "كتاب المجموع من مؤلفات أبي النصر الفارابي"، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥/١٩٠٧(الطبعة الأولى): ٣٩

[2] المرجع السابق : ٣٩

في الوحي والحجة والعلم والظن واليقين والشك والعقل والقلب والفطرة وما إلى ذلك، مما يبين الفرق بين طريق الوحي وطريق الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال؛ وقسم خصوصي في تفصيل حجج القرآن على الألوهية والمعاد والرسالة، وهذا القسم الثاني هو المقصود الأصلي من وضع الكتاب. أما القسم العمومي فإنما هو كالأساس والتمهيد له. وهذا الذي ظل المؤلف يعالج ترتيبه على أنحاء مختلفة، فرتبه في فهرس المسودة الأولى هكذا:

١ - تعريف الحجة وتقسيمها وطرقها وأسماؤها.

٢ - منصب الخصمين في احتجاج الوحي.

٣ - مبادئ الاستدلال.

٤ - كيف إثبات هذه المبادئ؟

٥ - المبادئ ثلاثة وبديهية.

٦ - فالمخاطب هو عقل الإنسان وفطرته على سبيل الذكر.

٧ - أساليب الاستدلال ولسانه.

٨ - ذكر وجوه الخفاء ـــ الوجه الأول.

٩ - الوجه الثاني من وجوه الخفاء.

١٠ - الوجه الثالث من وجوه الخفاء.

ورتب هذا القسم في مسودة أخرى فقال:

«أما العمومي ففيه أصول:

الأول: في بيان موضع العقل والحجة في الدين، فالاعتماد عليه

والاحتجاج به.

والثاني: موضع العلم واليقين والاعتماد عليه، وترك الاعتماد على الشك والظن.

والثالث: في التمييز بين العقل والوهم، والحكم والهوى، وتشريح عمل العقل.

والرابع: في مبدأ اليقين وبنائه على الفطرة الحاكمة، وترتيب اليقين وجوداً وظهوراً.

والخامس: في عدد متيقنات الفطرة حسب الترتيب الوجودي.

والسادس: في إيضاح ما استنبط من هذه المتيقنات، وهي عقائد الدين من معرفة الرب الرحيم الحق والمعاد والهداية والرسالة.

والسابع: طريق استدلال القرآن لفظاً ومعنى».

وذكر مرة أخرى أن القسم العمومي في الأصول وفيه اثنا عشر فصلاً ثم عدد ثمانية فصول عناوينها:

١ - العقل والعلم.

٢ - سبب غلبة الظن على العلم الحق.

٣ - سبب غلبة الهوى على التقوى.

٤ - حرية العقل والقلب هي الفطرة.

٥ - الحجة وأساسها اليقين.

يجب التحرز عنها، وقل من لا يغترّ بهذه المقدمات ولا تلتبس عليه باليقينيات.»

وقال : "والمشهورات تصلح للفقهيات الظنية ولا تصلح لغيرها."

وأكثر من ذلك أنه أبطل حكم الفطرة فقال:

"وليس كل ما تشهد به أول الفطرة قطعا هو صادق بل الصادق ماتشهد به قوة العقل فقط ومداركه الخمسة المذكورة."

وهذا استعماله اسم أول الفطرة في معنى خاص ثلمة لا تسد، فإن اقتحام الفطرة يفضي إلى الشك في كل شيء. وإنما قال ذلك تقليدا لبعض الفلاسفة فإنهم زعموا أن الحواس تغلط وهذا باطل فإن الغلط إنما يجيء من قبل الاستنباط، وهو من فعل العقل لقياسه مع الفارق كما هو الآن معلوم بين الفلاسفة.

ولما أدخل أبو حامد رحمه الله المنطق في الإسلام تلقاه الناس بالقبول وعكفوا عليه صما وعميانا، ولم يكن في خلوهم أن هذا هو طريق معرفة الحق، وبذلك دخل إليهم أن دلائل القرآن إنما هي محض الخطابيات. وهذان السببان، أعني الثاني والثالث، هما من أكبر الدواعي وأعظمها للحث على وضع علم مستقل يتبين به طريق النظر الصحيح في آيات الله البينات التي تشهد لها الفطرة السليمة.

والرابع : وهو من قبيل الثالث ما تسلط على المولعين بإلهيات الفلاسفة مع إيمانهم بالنبوات من الوهم بأن مسائل التوحيد والربوبية إنما يبرهن عليها بطريق الفلسفة، وأما الأنبياء فلم يأتوا إلا بالإقناعيات. وهذا التوهم صرفهم عن فهم ما أنزل الله من الحكمة البازغة ولم يعرفوا قدره العظيم. وفشا هذا

وأتعجب من أبي حامد رحمه الله مع حميته للحق وحمايته للصدق كيف اتخذ المنطق على علاته معيارا للعلم ومحكا للنظر، ثم لم يكتف بذلك بل ادعى أنه أخذه من القرآن، وإنما أخذه من اليونان. ولا شك أن استدلال القرآن لا يخالف ما صح من المنطق ولكن أين الجذوة من النور الأعظم والوشل من البحر الخضم. ولو أنه أخذه من القرآن لكان محترزاً عن أباطيل المنطقيين، ولكنه قد اتبعهم كل الاتباع حتى فيما زاد المتأخرون على واضعه الأول من الجهالات، فقلدهم في كل نقير وقطمير. ومن ذلك أنه جعل أوليات الأحلاق من المظنونات، فقال في كتابه "محك النظر"[1] في مدارك اليقين والاعتقاد إذ جعلها سبعة أقسام:

(السابع: المشهورات) وهي آراء مجموعة أوجب التصديق بها إما شهادة الكل أو الأكثر أو شهادة الجماهير أو الأفضل. كقولك الكذب قبيح، والإنعام حسن. وشكر المنعم حسن وكفران النعمة قبيح. وهذه قد تكون صادقة وقد تكون كاذبة فلا يجوز أن يعول عليها في مقدمات القياس، فإن هذه القضايا ليست أولية ولا وهمية. فإن الفطرة الأولى لا تقضي بها."

وقال: "ولو كلفت نفسك الشك في أن الاثنين أكثر من الواحد لم يكن الشك متأتيا بل لا يتأتى الشك في أن العالم ينتهي إلى خلاء وهو كاذب وهمي ولكن فطرة الوهم تقتضيه والآخر تقتضيه فطرة العقل. فأما كون الكذب قبيحا فلا تقضي به لا فطرة الوهم ولا فطرة العقل بل ما ألفه الإنسان من العادات والأخلاق والاصطلاحات. وهذه أيضا معاضة مظلمة

[1] محك النظر في المنطق (الطبعة الأولى بالمطبعة الأدبية، مصر) ص: ٥٥-٥٨

٦- اليقين فطرة حاكمة وإلمام ضروري.

٧- أوليات اليقين.

٨- الفرق بين الأدلة الدينية وأدلة الفلاسفة».

وقال في موضع آخر: «القسم الأول في الأمور العامة، وفيه... فصول»، ثم ذكر الفصول الآتية:

١- ماهية الحجة وأجزاؤها وتقسيمها حسب ما في هذا الكتاب.

٢- عموم الكلام في مادة الحجة الفطرية وضرورة اليقين.

٣- الكلام في إبطال الشك المطلق من جهة بداهة العقل.

٤- الكلام في ضعف هذا الطريق بذكر ما آل إليه من الضلال والحيرة.

٥- الكلام في إبطال الشك المطلق من جهة بصيرة الفؤاد.

٦- الكلام في إبطال الشك من طريق الفطرة وضرورة العلم واليقين.

٧- الكلام في مجاري اليقين الفطرية ومبادئ جميع العلوم والأعمال.

وقد حرصنا على إيراد هذه النماذج المختلفة كلها هنا، ليتصور القراء المسائل التي كان المؤلف يريد مناقشتها، والأصول والقواعد التي يرى أنه لا بد أن إنشائها وإحكامها، قبل الشروع في تفصيل حجج القرآن.

وقد انتهت به هذه المعالجة المستمرة إلى خطة بديعة متكاملة بفصولها المعدودة، فألقى عندها عصا التسيار. وقسم الكتاب في هذه الخطة الجديدة بعد المقدمة إلى ثلاث مقالات:

المقالة الأولى في انتقاد المنطق والفلسفة والكلام، وهي في ثلاثة أبواب: الأول في انتقاد المنطق، والثاني في انتقاد الفلسفة، والثالث في انتقاد علم الكلام، وخصص للباب الأول عشرة فصول، وللثاني سبعة، وللثالث خمسة.

والمقالة الثانية في تأسيس العلم، وهي أيضاً في ثلاثة أبواب: الباب الأول في «الميزان، وهو المنطق الأعلى»، والثاني في «الحكمة البازغة»، والثالث في طريق احتجاج القرآن. وخصص لكل باب منها عشرة فصول.

والمقالة الثالثة في حجج القرآن، وهي أيضاً تشتمل على ثلاثة أبواب: الأول في أدلة الربوبية، والثاني في أدلة المعاد، والثالث في أدلة الرسالة. ولكل باب عشرة فصول.

وإن في تحديد عدد الفصول لكل باب — وإن لم تذكر عناوينها — لدليلاً على أن موضوعاتها كانت معلومة مقررة عند المؤلف، ولكن المؤسف أنه لم يتمكن من إنجاز العمل حسب خطته. فقد خصص للباب الأول من المقالة الأولى في انتقاد المنطق عشرة فصول، ولكن لم يكتب منها إلا سبعة فقط. وفي باب انتقاد الفلسفة كتب خمسة فصول من سبعة. أما باب انتقاد الكلام فكتب منه فصلا واحدا مع أنه في الفهرس قرر له خمسة فصول.

نعم في الباب الأول من المقالة الثانية، وهو في المنطق الأعلى، كتب جميع الفصول العشرة المخصصة له. أما الباب الثاني في الحكمة البازغة، فكتب قبل الشروع فيه عدة مباحث، ثم كتب نحو خمسة فصول من عشرة. وفي الباب الثالث في طريق احتجاج القرآن ترك بياضا للفصل الأول، ثم كتب الفصول الثاني والثالث والرابع، وذلك يعني أنه كتب ثلاثة فصول من

الذي أدخل منطقهم في الإسلام، فكان كمن قتل الأفعى وربى أولادها. وكذلك انخدع بأخلاقياتهم وبنى عليها كتابه "ميزان العمل"، فلم يخرج من اتباع الفلاسفة مع غلوه في ردهم.

وأما ابن مسكويه والطوسي وأمثالهما فهم مجاهرون بتقليد اليونان في الأخلاقيات. ومنهم من انتبه لأكثر من ذلك كابن تيمية رحمه الله، فرد على المنطقيين رداً طويلا ودل على زيغ نهج المتكلمين ولكنه اقتنع بالهدم ولم يبن قصراً يأوون إليه. والناس قلما يتركون ما اعتادوا به من دون بدل يتحفونه عوضاً عما يبذلونه.

وكنت أحد في القرآن أصولا للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها. فتأكد عندي الحاجة إلى جعلها موضوع علم مستقل، وعرضت جملة منها على بعض الأذكياء من العلماء، فألح علي بإتمامه غاية الإلحاح. فرجوت أن يتقبله أهل النظر ويزول به بإذن الله ما مع الناس عن فهم ما جاء به القرآن من بوالغ الحجج لما اشتغلوا به من العلوم السافلة المبعدة عن استقامة العقل وسداد الفكر. وذلك من الجهة الكلية الأصولية.

والثالث : أنه قد تعلق بهم من أباطيل المنطق ظن خاص منعهم عن معرفة ما في دلائل القرآن من الرسوخ. وذلك ظنهم بأن القضايا الأخلاقية مظنونات ولا يقوم بها البرهان، ولم يتفطنوا أنه يهدم الدين كله مع أنه يهدم جانبا عظيما من حكمتهم وهو الحكمة العملية. فلو لم يكن في المنطق من الضلالة إلا هذا القول الباطل والسم القاتل لكان أولى بأن ينقدوا أمره ويتقوا شره.

والباعث الأصلي على هذا الرأي ما وجدوا عيانا من الخبط والشطط في المنتسبين إلى العقل من الفلاسفة والمتكلمين فأساءوا الظن بالمعقول. ولكن قد تبين لي أن ضلالهم لم يكن من جانب العقل بل من تسلط التقليد وتركهم طريق الفطرة التي هدى الله سبحانه إليها بكتابه وتعليمات رسله. فرأينا الحاجة إلى ذكر هذا الطريق ليركنوا إلى ما جاء به القرآن من الحجج البالغة والحكم البازغة، ومن الحث على استعمال النظر والفكر ومن مدح أرباب العقل والحجر. وكذلك رأينا الحاجة إلى إبطال مافهموه من الإيمان بالغيب، ومن بنائه على محض المعجزات دون الآيات البينات المشهودة في الأنفس والآفاق المنشورة في تمام القرآن المستعملة خاصة لدعوة الناس من طريق الحكمة والاستدلال دون التقليد ومحض الاعتقاد كما قال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (سورة النحل/١٢٥). ولذلك نظائر لا تحصى.

والثاني : ما تعلق بالذين معظم همهم المعقول من المنطق والفلسفة، فإنهم قد ابتلوا بعقليات سافلة زائغة عن طريق الفطرة والهدى مفضية إلى محض الحيرة وصريح العمى كما لا يخفى على من نظر في حزعبلات المتفلسفين العاشين عن نور الوحي والكتاب. ولذلك حذر السلف عن الاشتغال به ولكن أبى الناس إلا النظر فيه والولوع به والإخلاد إليه، ثم بعد التجربة والمعرفة بما قد انتبهوا لمضارها.

فمنهم من أبطل بعض أباطيلها وأبقى بعضها محسنا به ظنه كأبي حامد (الغزالي) رحمه الله. فإنه بيّن تهافت ما في إلهيات اليونانيين ولكنه هو

عشرة.

أما المقالة الثالثة في حجج القرآن، فقد خصص المؤلف رحمه الله لكل باب من أبوابها الثلاثة عشرة فصول، ولكن لا نجد منها في هذه المسودة الأخيرة إلا ثلاثة فصول من الباب الأول في أدلة الربوبية. وذكر الناسخ رحمه الله أن بعدها في الأصل بياضا إلى ١٢ صفحة. ثم يوجد مبحث بعنوان «تمهيد لفهم الأمثال» يتلوه فصل آخر.

هذا هو محتوى المسودة الأخيرة.

ومنهجنا في إعداد هذه النشرة أننا وضعنا المسودة الأخيرة في بدايتها كما هي، فهذا هو القسم الأول. أما القسم الثاني فيشتمل على الفصول التي احتوت عليها المسودتان الأوليان والمباحث المتفرقة التي وردت في بعض المجاميع. وقد تولى ترتيب هذا القسم، ثم توثيق النقول وأقوال الفلاسفة والمتكلمين الواردة في الكتاب كله، والتعليق عليه: الأخ الدكتور أياز أحمد الإصلاحي، ثم راجعه الشيخ أمانة الله الإصلاحي بمعاونة ابن أخيه الدكتور محيي الدين غازي، فجزاهم الله خير الجزاء.

وقد سمى المؤلف رحمه الله كتابه في مسودتيه الأولى والثانية «حجج القرآن»، وكذا سماه في مؤلفاته الأخرى، فهو العنوان المعروف عند المعنيين بكتب الفراهي، ولكن لما رتبه في المسودة الأخيرة على المنهج المذكور سماه في أولها «الحكمة البازغة والحجة البالغة»، فرأينا أن نضع العنوانين كليهما على غلاف الكتاب.